

## المتعوس متعوس

خرجت من بيتي في أحد أيام الخريف الحارّة. قادتني قدماي باتجاه البلدة القديمة في القدس، حيث لم أزرها من فترة طويلة، ربّما بسبب انشغالي المصطنع أو بسبب الأحداث السياسيّة المتتالية في الأيام الأخيرة.

سرت في طريقي إلى البلدة القديمة مرورًا بحيّ "ماميلا" أو باسمه العربي "مأمن الله" صاعدًا بالدرجات المؤدية إلى باب الخليل، منتقلًا من حوانيته الحديثة "والبوتيكات" الغالية، إلى الدكاكين الشّعبيّة وحوانيت العطارين والتّوابل، مصطدّمًا بجماعات السّيّاح الغربيين والأفارقة، كلُّ بلباسه الشّعبي ولغته الرّنّانة. ها هو بائع الكعك والفلافل يصيح عاليًا مرّوجًا لتجارته. وسط استغراب السّيّاح الأوروبيين ذوي البشرة البيضاء التي تحوّلت إلى حمراء نتيجة الحرّ الخريفي في أيامه الأخيرة.

"الله يا محسنين لله"، "صدقة لوجه الله". سمعته ينادي بصوت أجش وحشجة تصدر من أعماق صدره، كما يبدو من أثر التّدخين المتواصل للسّجائر ذات الصّنع المحلي.

نظر إليّ باستجداء واستعطاف. وصلت المشي دون الالتفات إليه، فهم كثيرٌ بأيّامنا هذه، خاصّة في طريق المصلّين المتّجهين من كل صوب وحذب إلى الصّلاة في المسجد الأقصى.

فجأة أحسست بوجع غريب في ساقِي، وجع أشبه بلسعة خفيفة لكنّها حادّة، لسة أفعى أو حتى أشبه بلسعة عقرب. كان الوجع في أعلى ساقِي، قريبًا من جيبي الأيمن.

حاولت أن أتحمس ساقِي وأن أفحص إذا كان هناك دم أو أي أثر على جلدي. لم أر شيئًا. لا علامة أو جرح يُذكر ممّا زاد استغرابي. يعني هل من الممكن أن أشعر بهذه اللسعة دون أن أرى أثرًا يُذكر؟! هل من المعقول أنه ألم داخلي أو تحت الجلد؟! لم أكن متأكدًا، ولكنني شعرت بحرارة ما في جيبي.

فجأة وبدون مقدمات سمعت صوتًا غريبًا يعلو من جيبي:

- "يا أخي طلّع بعض النّقود وامنحها لهذا المسكين الذي يستجدي".

التفتّ حولي لعلّي أرى مصدر الصّوت الغريب. لم ألحظ أحدًا قريبًا مِنِّي. هل من المعقول أنني بدأت أهذي؟ هل هذا سُمّ اللسعة قد بدأ يسري في عروقي؟!

- "لماذا تتردد؟ لا تبتعد عن الرّجل، أخرج بعض النّقود من جيبك وأعطِ الرّجل!".

مددت يدي إلى جيبي وتحسّست النّقود. شعرت بحرارة تصدر منها حتى الفئات الورقيّة منها. كانت حارّة والعملات المعدنيّة كانت ملتهبة. ممّا زاد استغرابي أنني سمعت الصّوت يعلو ويعلو قائلاً بوقاحة:

- متى كانت آخر مرّة تصدّقت فيها على أحد المحتاجين؟! هل ستبقى هكذا تكدّس الأموال ولا تعطي شيئًا؟

تأكدت أنني أهذي، أو حتى أهلوس. نظرت إلى نقودي مستغربًا بعد أن أخرجتها من جيبي.

- "آآه، نعم هؤلاء نحن من يتكلم معك. يا أخي لقد سئمنا البقاء في الأماكن المظلمة، في جيوب النّاس أو في الخزانات أو حتى تحت الفرشات القديمة المهترئة أو تحت البلاط البارد. نريد أن نخرج، أن نرى ضوء الشّمس، نريد أن ننتقل، أن نتبادل الأيدي، أن ننتقل من مكان إلى آخر، فهذه طبيعتنا أن نتجوّل من مكان لآخر، أن نتحوّل إلى عملة أجنبيّة، وأنت لا تمنحنا هذا الحق".

نظرت إلى نقودي ورأيت بينها بعض الدّولارات واليوروهاات من بقايا زيارتي لتركيا قبل عدة أشهر.

بدا لي أنّ بعض الشواقل التي في جيبي بدأت تتحدّث موجّهة حديثها لي:

- أنظر إلى هذه الدّولارات واليوروهاات التي وصلت أقصى أصقاع العالم، وها هي قد وصلت إلينا، وقد أبلت بلاءً حسنًا في اقتصاديات العالم. أمّا نحن فما زلنا قابعين هنا، ننتقل من يد إلى يد ومن جيب إلى آخر دون فائدة تُرجى.

نظرت إلى نقودي غير مصدّق ما أسمع.

- "أخبره ماذا فعلت ومن أين أتيت. أخبره عساه يحرك ساكنًا ويفعل شيئًا بدل تكديسنا وادّخارنا في أروقة البنوك الباردة أو جيوبهم المغلقة".
- "هذا صحيح، فنحن كعملة أجنبية، لا نستقرّ في مكان واحد، فننتقل من مشروع إلى آخر، من بناء البنايات الشاهقة حتى السدود المائية، والشركات النامية المتطورة، والفنادق الفاخرة، حيث يقوم العملاء باستثمارنا وعدنا بماكنات حديثة تدغدغنا بسرعة فائقة حتى نشعر أننا نتلقّى مساجًا تايلانديًا رائعًا".
- "يا حسرة علينا! أنا قبعت فترة طويلة بقاع صندوق عند بائع فلافل حتى كدت أختنق من رائحة الزيت والدخان، وبصعوبة وصلت إليك.
- "فلافل!"، صاح اليورو. "أعوذ بالله، أنا كنت متواجدًا في أحد صناديق المنح الجامعية، وتنقلت من منحة إلى أخرى، أجوب الجامعات وأنشر العلم والثقافة أينما تواجدت".
- "هاي الناس إليّ عايشة!"، صاح أحد الشواقل المهترئة. "أمّا أنا فقد حُكم عليّ بالسّجن المؤبد في إحدى جرّات امرأة عجوز، أبّث الا أن تسجنني في هذه الجرّة القديمة المظلمة، وعاشت عيشة المتسولين ورفضت أن تخرجني إلى الضوء ولو للحظة.
- "وكيف كان خلاصك أيّها الشّيكل المسكين؟!"

- "لقد ماتت العجوز وتركتني عرضة لمعارك أبنائها وبناتها من الورثة الذين تناحروا عليّ حتى تمزّقت أطرافي. بالفعل لاحظت أنّ هذا الشّيكلم ممزّق بأحد أطرافه العُلّيا. استغربت كيف استطاع التّسلّل إلى جيبي رغم حرصي الشّديد".

- "يا أخي هناك فرق شديد بين العيش في أوروبا وأمريكا وبين العيش في بلادنا. أننا في بلادنا عبارة عن هدف بينما هم في بلادهم عبارة عن وسيلة، تُبنى بهم الجسور والحضارات وتُعمّر الدّول وتزدهر. أمّا نحن فيا حسرتاه علينا، نعيش في الظّلام ونُستعمل لأسوأ الأهداف، وحتّى إذا خرجنا إلى الأسواق فإنّها تكون أسواق (سوداء)، قدرة لا خير فيها".

أحسست أنّ رأسي تكاد تنفجر من هذا النّقاش العقيم. قرّرت العودة أدراجي حيث يجلس المتسوّل الذي صادفته سابقًا ومددت يدي إلى جيبي وأخرجت العملات كلّها وناولته إياها وسط دهشته وانبهاره.

لم أكد أخطو عدة خطوات حتّى سمعته ينادي بأعلى صوته:

"يا أخي، يا أخي ما هذا؟! خذ هذه العملات، لا أريدها، سأكتفي بالعملة المحليّة"، قالها ورمى بالدّولارات واليوروهاات بوجهي وسط الشّواقل: "المتعوس متعوس، حتّى لو كان فلوس".

هل يمكننا أن ننهي بدون طرفة:

توجّهت سيدة عجوز إلى شباك في البنك لإجراء عملية سحب نقدي..

سلّمت بطاقتها المصرفية إلى أمين الصندوق في البنك وقالت:

- " أودّ أن سحب 10 دولارات" ..

- قال لها أمين الصندوق: " لعمليات السّحب التي تقل عن 100 دولار يُرجى استخدام

ماكينة الصراف الآلي".

- سألت السيدة العجوز: لماذا؟

قال أمين الصندوق وهو يعيد لها بطاقتها: "هذه هي التّعلمات، لو سمحت ثمة زبائن خلفك

ينتظرون يُرجى المغادرة إذا لم يكن لك طلب آخر".

ظلّت السيدة العجوز واقفة صامتة لبضع ثوان، ثم أعادت البطاقة إلى أمين الصندوق

وقالت:

- " الرّجاء مساعدتي في سحب كل الأموال التي في حسابي".

دُهِش أمين الصندوق عندما راجع رصيد السيّدة العجوز وقال لها:

- " لديك 500000 دولار في حسابك والبنك ليس لديه الآن هذا المبلغ حاليًا، هل يمكنك

العودة غدًا؟"

سألت السيدة العجوز ببرود: كم يمكنها السّحب على الفور؟!

فأخبرها أمين الصندوق: "أي مبلغ لغاية 3000 دولار".

قالت السيدة العجوز: "حسنًا، من فضلك دعني أحصل على 3000 دولار الآن".

عاد أمين الصندوق بغضب إلى الخزانة وأخرج رزمًا من 20 دولارًا و 10 دولارات وأمضى

الدقائق العشر التالية في عد 3000 دولار ثم ناولها إياها وقال:

- "هل هناك شيء آخر يمكنني القيام به من أجلك اليوم سيدتي؟"

وضعت السيدة العجوز بهدوء 10 دولارات في حقيبتها وقالت:

- "نعم، أريد إيداع 2990 دولارًا في حسابي".

أبقى الله جيوبكم عامرة

أ.أيمن جبارة